

اسم صاحب الرسالة : السيد جمال مصطفى سالم  
الأستاذ المشرف : الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم  
عنوان الرسالة : الفتح العثماني الأول لليمن ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥  
الدرجة : الدكتوراه مع درجة الشرف الأولى

يعد موضوع « الفتح العثماني الأول لليمن ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥ » من أهم الموضوعات في تاريخ اليمن الحديث والمعاصر لأنه يتناول فترة زمنية تضمنت الجذور الأساسية لهذا التاريخ ، كما تمخضت عن نتائج هامة أثرت في تاريخ البلاد حتى أيامنا هذه . كذلك احتاج هذا الموضوع الى معالجة خاصة ، نظرا لطبيعته من ناحية ، ولطبيعة مراجعه من ناحية أخرى . اذ أنه من الموضوعات التي تتصف بأنها موضوعات سياسية ، غير أنه في نفس الوقت من الموضوعات التي لا يمكن معالجتها دون اللجوء الى النواحي الاجتماعية والاقتصادية التي تساعد على تفسير الأحداث السياسية ، أو بالأحرى التي ترتبط بها في وحدة متكاملة . ونظرا لطول الفترة التي يعالجها هذا الموضوع من الناحية الزمنية ، فقد رأيت أن أقسمه الى مراحل زمنية قصيرة نسبيا تتضمن كل منها فترة محددة وموضوعا قائما بذاته ، لذلك لم تكن هذه المراحل متساوية من الناحية الزمنية . وترجع أهمية هذا التقسيم الى أنه أتاح الفرصة لتعميق دراسة كل مرحلة على حدة ، مع توضيح جميع نواحيها المختلفة ، وان كان هذا لم يتعارض مع ربط جميع هذه المراحل مع بعضها البعض . ومن ناحية المراجع ، فقد اتضح أثرها بشكل كبير على طبيعة الموضوع ، اذ تميزت هذه المراجع - وعلى رأسها مجموعة المخطوطات التي اعتمدت عليها صفة رئيسية - بغزارة مادتها في بعض النواحي ، وقالها المؤلف في النواحي الأخرى ، وذلك الى جانب تناقض مادتها مع بعضها البعض ، وتعدد وجهات نظرها ، مع تميز مواقفها . غير أن طبيعة مراجع الرسالة - وخاصة الأصلية منها - هي التي زادت من أهمية موضوع الدراسة ، وجعلته يتصف بالأصالة .

قسم المؤلف الرسالة الى تمهيد وتسعة فصول . وقد دعت الحاجة الى هذا التمهيد ، وهو بعنوان « اليمن عند بداية القرن السادس عشر الميلادي » حتى أركز به دراسة الطبيعة البشرية في اليمن ، وأثر هذه النواحي على الحياة

الاجتماعية ، وعلى التطور التاريخي به ، وذلك مع التركيز على دراسة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية عند بداية القرن السادس عشر الميلادي حتى تتضح الأوضاع التي واجهت العثمانيين في اليمن عند مجيئهم اليه . وقد اتضح هنا كيف أثرت ظروف اليمن الطبيعية وخاصة من ناحية التضاريس التي يغلب عليها الطابع الجبلي ، ومن ناحية الموقع الاستراتيجي الهام ، على النواحي البشرية والاجتماعية والاقتصادية في اليمن ، وقد أكد المؤلف ذلك في العرض السريع لتطور تاريخ اليمن ، وذلك قبل أن أقف عند دراسة حكم أسرة الظاهريين به وهي التي عاصرت بداية ذلك القرن .

وقد درس المؤلف في الفصل الأول ، وهو بعنوان : « الغزو البرتغالي والجهود العربية المضادة ، ١٥١٧ - ١٥٣٨ » ، العوامل المختلفة التي أدت فيما بعد الى فتح العثمانيين لليمن . ولذلك اهتمت بدراسة حركة الكشف البحرية البرتغالية ونجاحها في الوصول الى الهند بحرا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ونجاح البرتغاليين بالتالي في تحويل التجارة الشرقية الى هذا الطريق الجديد ، وذلك بعد أن هاجموا السفن والسواحل العربية والاسلامية لتحطيم سيطرة العرب والمسلمين على هذه التجارة . ومن ناحية أخرى تنبعت جهود هؤلاء الآخرين بما في ذلك سلاطين اليمن لصد الغزو البرتغالي عن تجارتهم وسواحلهم ، وقد ظهر هنا أن المماليك في مصر هم الذين تحملوا العبء الأكبر في الوقوف أمام البرتغاليين ، غير أن جهودهم باءت بالفشل . وقد انتهى الصراع المملوكي البرتغالي الى استيلاء المماليك على ساحل تهامة اليمن لاتخاذة قاعدة أمامية للدفاع عن سواحل البحر الأحمر ، وللانطلاق منه لمحاربة البرتغاليين في الهند والمحيط الهندي . وقد انتهت الحرب بين المماليك والظاهريين في اليمن الى سقوط هذه الأسرة التي كانت آخر الأسر السنية الحاكمة في اليمن . وقد سقط الحكم المملوكي في مصر في نفس الوقت ، ودخلت مصر والشام والحجاز في حوزة العثمانيين ، فاضرت القوة المملوكية في اليمن الى الاعتراف بالسيادة العثمانية عليها .

وتناول المؤلف في الفصل الثاني تحول السيادة الاسمية للعثمانيين في اليمن الى سيادة فعلية ، ولذلك سميته « الفتح العثماني لسواحل اليمن » ، ١٥١٧ - ١٥٣٨ . وكان خضوع مصر وبالتالي سواحل البحر الأحمر لسيطرة

العثمانيين قد أدى الى اصطدامهم المباشر البرتغاليين ، والى قيام التسابق بينهما من أجل الاستيلاء على المواقع الاستراتيجية في البحر الأحمر وعلى السواحل العربية الجنوبية أو على ساحل أفريقية الشرقى . وقد أهتم العثمانيون في الحقيقة بالمعركة الدائرة مع البرتغاليين في البحار العربية الجنوبية ، وإن كان استعدادهم لهذه المعركة قد تأخر بعض الشيء لانشغالهم في جهات أخرى متعددة في أوروبا وضد فارس . وقد ظهر اهتمام العثمانيين بمحاربة البرتغاليين في اعداد حملة سليمان باشا الحادم التي ذهبت الى الهند في سنة ١٥٣٨ م للقضاء على نفوذهم هناك وعلى احتكارهم للتجارة الشرقية . وقد فشلت تلك الحملة البحرية في تحقيق غرضها في الهند ولكنها نجحت في فتح عدن ، وفي القضاء على قوة المماليك في زيب و تهامة ، وفي تدعيم السيطرة العثمانية في باقى أنحاء البحر الأحمر . وفي هذا الفصل اهتمت دراسة نشاط البرتغاليين البحرى في هذه الفترة ، فأوضحت كيف تمكنوا من التوغل الى داخل البحر الأحمر حتى هاجموا جدة ، وكيف نجحوا ، اقامة العلاقات القوية مع الحبشة ، وذلك حتى تتضح حقيقة جهود العثمانيين للوقوف ضد الخطر البرتغالى .

وتناول المؤلف في الفصل الثالث ، وهو بعنوان « الفتح العثمانى الأول لليمن ، ١٥٣٨ — ١٥٥٥ م » ، خطوات العثمانيين لبسط سيطرتهم على أقاليم اليمن الداخلية ، ونجاحهم في ذلك في عهد أزدمر باشا رابع الولاة العثمانيين في اليمن . وكن من المتوقع أن يقع الصدام بين العثمانيين والزيديين بزعامة الامام شرف الدين الذى كان قد نجح في بسط سيطرته على جميع أقاليم اليمن الداخلية ، وذلك أثناء الصدام الذى دار بينه وبين المماليك وبقايا الطاهريين قبل قدوم العثمانيين الى اليمن . ويرجع النجاح الذى حققه العثمانيون في اليمن حينذاك الى قوتهم العسكرية والى تفكك جبهة الزيديين . وقد برز في أثناء هذا الصدام شخصية المطهر ابن الامام شرف الدين ، وخاصة بعد أن تمكن من الصمود امام قوات ازدمر باشا أثناء محاصرته لحصن ثلاء ، حتى أجبر العثمانيين على عقد الصلح معه ، واحتفظ بممتلكاته الخاصة مقابل اعترافه بالخضوع للسيطرة العثمانية .

ولم تستقر السيطرة العثمانية في اليمن طويلا بعد عزل ازدمر باشا ، اذ فقد العثمانيون ممتلكاتهم في اليمن بما في ذلك عدن ، ولم يبق بأيديهم سوى « زيب » وما حولها من الأراضى التهامية .

وقد عالج الفصل الرابع وهو بعنوان « تدهور السيطرة العثمانية ، ١٥٥٦ - ١٥٦٨ » ، العوامل المختلفة التى أدت الى انهيار هذه السيطرة ، والتى كان منها وصول بعض الولاة الضعفاء الفاسدين الى حكم اليمن نتيجة وجود بعض الاضطراب فى نظم الدولة العثمانية وأجهزتها منذ أواخر عهد السلطان سليمان القانونى ( ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م ) . ومن ناحية أخرى ، كان وجود المطهر على رأس الزيدى من أهم العوامل التى أدت الى سرعة انهيار السيطرة العثمانية حينذاك ، فقد نجح بفضل حنكته السياسية ومهارته الحربية فى جميع الفئات اليمنية حوله ، وفى احراز الانتصارات المتتالية ضد القوات العثمانية حتى توقفت قواته أخيرا أمام صمود العثمانيين فى « زيد » . وفى هذا الفصل حرصت على ابراز العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة التى كانت تؤدى الى تدمير اليمنيين من الحكم العثمانى وثورتهم عليه .

أما الفصل الخامس فقد تناول فترة قصيرة نسبيا لأن المؤلف ركز الحديث فيه عن أعمال حملة سنان باشا لاستعادة ممتلكات العثمانيين فى اليمن من أيدي الزيدىين بزعامة المطهر . ونظرا لأهمية هذه الحملة فى تاريخ اليمن الحديث وأهمية أعمالها ، فقد استعرت تعبير أحد المعاصرين وقتذاك عند حديثه عن هذه الحملة وجعلته عنوانا للفصل وهو « الفتح العثمانى الثانى لليمن ، ١٥٦٩ - ١٥٧١ م » . وقد تتبعت فى هذا الفصل خطوات سنان باشا فى اليمن بشىء من التفصيل حتى أبرز العوامل الطبيعية والبشرية التى تساعد اليمنيين على الثورة ، وعلى الوقوف دائما فى وجه السلطة المركزية فى البلاد ، والتى كانت تعوق فى نفس الوقت تقدم الجيوش النظامية فى المناطق اليمنية وخاصة المناطق الشمالية . وأخيرا ، فقد نجح سنان باشا الى حد كبير فى اخضاع اليمن ثانية للسيطرة العثمانية ، رغم اضطرابه الى عقد الصلح مع المطهر ، وبقاء الأخير فى ممتلكاته مع اعترافه الخضوع للسيطرة العثمانية .

وفى الفصل السادس وهو بعنوان « عهد توطيد السيطرة العثمانية فى اليمن ، ١٥٧١ - ١٦٠٧ م » عرض المؤلف أعمال الولاة السياسية والحربية لاكمال أعمال حملة سنان باشا فى اليمن ، حتى تم للعثمانيين توطيد سيطرتهم الى حد كبير

(١٦)

به ، وخاصة في عهد آخر ولاية هذه الفترة حسن باشا الذي امتدت ولايته الى خمسة وعشرون عاما . وقد ظهر في هذا الفصل أهمية العامل السياسي في تثبيت أقدام العثمانيين في اليمن ، فالى جانب اعتماد العثمانيين على قوتهم العسكرية ، فقد لجأ هؤلاء الولاة الى الأساليب السياسية المختلفة لنشر العدل ولتقريب الأهالي اليهم . كذلك كانت وفاة المطهر الى جانب تنازع أبنائه فيما بينهم من أهم العوامل التي أدت الى نجاح العثمانيين في توطيد سيطرتهم في تلك الفترة . غير أن هذا النجاح لايعنى استقرار الأحوال تماما في اليمن حينذاك ، اذ استمر قيام الثورات في أقاليم اليمن المختلفة نظرا لضعف الأحوال الاقتصادية بها ، أو لشدة وطأة العثمانيين عليها ، مما كان يجبر العثمانيين على ارسال الحملات تلك الأقاليم لخماد الثورات بها .

وقد أشار المؤلف في نهاية هذا اشارة سريعة الى بداية ثورة القاسم ونجاح حسن باشا في اخمادها مؤقتا نظرا لقوة قبضة العثمانيين على زمام الأمور في اليمن ، وذلك لأننى فصلت الحديث عن هذه الثورة في فصل خاص هو الفصل السابع وعنوانه « ثورة امام القاسم وخروج العثمانيين من اليمن ، ١٥٩٧ - ١٦٣٥ م » . وقد تناولت في هذا الفصل اسباب ثورة الامام القاسم من حيث شدة وطأة الحكم العثماني على اليمنيين ، وفساد بعض الولاة والعمال والجنود ، وازدياد قوة الامامة الزيدية وقدرتها على جميع الأهالي حولها ، كما تناولت من ناحية أخرى ماحل هذه الثورة في أثناء حياة الامام القاسم ، ثم في حياة ابنه الامام المؤيد وذلك حتى تم خروج العثمانيين من اليمن في عام ١٦٣٥ م . وقد اتضح هنا كيف أدى اضطراب شئون الدولة العثمانية في ذلك الوقت الى انشغالها عن اليمن ، والى اهمال ارسال النجيدات الى ولايتهم به ، بل والى الانصراف عن استعادته حينذاك عندما خرج من أيديهم . كذلك اتضح هنا أيضا أن حروب الامام القاسم ضد العثمانيين هي التي أكدت سيطرة الزيديين في اليمن ، وأن هذا هو الذي ساعدهم على تولي زمام الأمور في البلاد بعد خروج العثمانيين منها ، وان كان هذا لاكان هذا لاينفي دور أسرة الامام شرف الدين - وعلى رأسهم المطهر - في توحيد السيطرة الزيدية في اليمن .

أما الفصل الثامن وهو بعنوان « النشاط العثماني في البحار العربية الجنوبية ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥ م » فقد تحدث المؤلف عن جهود العثمانيين البحرية أثناء وجودهم

فى اليمن ضد البرتغاليين ، فأوضح كيف نجحوا فى حماية سواحل البحر الأحمر ، وفى منع البرتغاليين من التغول الى داخله . وكان البرتغاليون قد استطاعوا فى سنة ١٥٤١ م الوصول الى الطور استعداد المهاجمة الأسطول العثمانى فى السويس ، فدفع هذا العثمانيين على زيادة قوتهم البحرية فى البحر الأحمر ، وعلى تقوية سيطرتهم فى اليمن . وفى نفس الوقت حاول العثمانيون تطهير السواحل العربية الجنوبية من الخليج العربى من الجنوب البرتغالية المتناثرة بها ، فأرسلوا حملة بحرية الى هذه السواحل ولكنها لم تستطيع أن تحقق نجاحا هاما . غير أن نجاح العثمانيين البحرى كان قد تأكد فى جنوبى البحر الأحمر ، اذ منعوا البرتغاليين من دخوله ، كما قطعوا طرق الاتصال بين البرتغاليين وحلفائهم الأحباس مما قضى على آمالهم فى التعاون لغزو العالم العربى ومهاجمة الحرمين الشريفين . وقد اتضح ضعف السيطرة البحرية فى البحار العربية الجنوبية تبعا لضعف البرية العثمانية العامة فى البحر المتوسط ، فاقصر نشاطهم البحرى على مناطق محدودة أمام السواحل اليمنية والسواحل الأفريقية القريبة منها . ولقد كان ضعف البحرية البرتغالية آنذاك من العوامل الهامة التى ساعدت العثمانيين على عدم التمسك بالبقاء فى اليمن عندما أجبرهم اليمنيون على الخروج منه .

أما الفصل التاسع والأخير ، وهو بعنوان « اليمن تحت الحكم العثمانى ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥ » فهو مخصص لدراسة الأوضاع الادارية والاقتصادية والاجتماعية فى اليمن أثناء الحكم العثمانى له . وقد تعرضت للنواحي الايجابية والنواحي السلبية فى حكم العثمانيين لليمن حتى تتضح الجوانب المختلفة للحياة هناك فى ذلك الوقت . وقد ربطت فى هذا الفصل بين نظم الحكم فى اليمن ونظم الحكم فى الدولة العثمانية العامة ، وذلك اعتبار أن اليمن كان ولاية عثمانية حينذاك ، فساعد هذا على ابراز الخصائص المحلية لليمن ، التى جعلته يتميز بوضعه الخاص فى داخل الامبراطورية العثمانية .

وأخيرا فقد حرصت على وضع ثلاثة ملاحق فى نهاية الرسالة ، أولها قائمة بأسماء السلاطين الذين عاصروا الفتح العثمانى الأول لليمن ، وثانيها قائمة بأسماء الولاة الذين حكموا اليمن فى تلك الفترة ومدد حكمهم ، وثالثها قائمة بأسماء أهم الأئمة الزيديين الذين ظهروا آنذاك . كذلك حرصت على كتابة بعض الملاحظات الخاصة بمراجع الرسالة حتى أشير الى بعض نواحي أهميتها .